المحاضرة الرابعة: المقاربات السوسيولوجية للثقافة

عناصر المحاضرة:

1- مفهوم النظرية الاجتماعية
   1-1- المقاربة النظرية
2- المقاربات النظرية السوسيولوجية حول الثقافة
   2-1- النظرية الدائرية لابن خلدون
   2-2- المقاربة البنيوية الوظيفية
   2-3- المقاربة الإيديولوجية
   2-4- المقاربة السوسيولوجية للثقافة نهاية القرن العشرين

تمهيد:

تختص النظرية السوسيولوجية على العموم، بأطرها التفسيرية المزدوجة (الثنائية)، فنجد أن التراث التنظيري السوسيولوجي يجمع دائما بين متناقضين، مثل: التغير والاستقرار، الديناميات والاستاتيكيات، الفردية المنهجية والجمعية، الطوعية والجبرية، الموضوعية والذاتية، العقلانية واللاعقلانية..، ورغم أن هذه الثنائيات مفيدة كثيرا في عملية التحليل، إلا أنها تخفي مظاهر الاعتماد المتبادل بين الظواهر. إذ يتمسك –غالبا– العديد من علماء الاجتماع، بواحد من هذه الثنائيات، ويدعون بأنه الأكثر أهمية. غير أن نظرية الثقافة توضح أنه لا داع للاختيار بين الجمعية والفردية مثلا، أو بين القيم والعلاقات الاجتماعية، أو بين التغير والاستقرار. وضمن هذه المحاضرة، سنحاول عرض أهم المقاربات نظرية للثقافة والمنتجة ضمن الحقل السوسيولوجي، دون إغفال مفهوم النظرية الاجتماعية، لارتباط نظريات الثقافة بها.

1- مفهوم النظرية الاجتماعية:

تعرف النظرية **Theory** على أنها إطار فكري، يفسر مجموعة من الفروض العلمية، ويضعها في نسق علمي مترابط. وبناء النظرية العلمية، يعتمد على جهد عقلي تركيبي من جانب الباحث، يتميز بالنظرة الكلية إلى الحقائق الجزئية، ويحرص على تنظيم الأجزاء في نطاق كل موحد، ولذا تعتبر دائما أعلى مستويات المعرفة.

أما **النظرية الاجتماعية** فإنها تمثل حسب **وورد Word** "نسق منطقي استنباطي استقرائي، يتكون من مفاهيم وتعريفات وافتراضات، تعبر عن علاقات بين اثنين أو أكثر من أوجه الظاهرة، ويمكن أن يشتق منها فرضيات، كما يمكن التحقق من صحتها أو خطئها". ويعرفها **تلكوت بارسونز T. Parsons** بأنها "نسق نظري، يشكل وحدة لمفاهيم مترابطة متساندة منطقيا وبنائيا، لها مرجعية إمبيريقية في الواقع، تشكل فيها العلاقات بين الأجزاء، إمكانية اشتقاق فرضيات جديدة، أو تعميمات تعبر عن انتظامات إمبيريقية".

وبناء على التعريفات المدرجة، فإن النظرية الاجتماعية تمثل "مجموعة من المفاهيم، التي تشكل من خلال العلاقات بينها، منظورا مفاهيميا للواقع الاجتماعي، بعض هذه المفاهيم وصفية تحدد وجود المضمون، والبعض الآخر تحليلي، وتتألف النظرية من مجموعة افتراضات يعبر كل منها عن علاقة بين سمتين أو أكثر، بحيث تشكل هذه الافتراضات معا نسقا قابلا للاستنباط، وبحيث تكون المفاهيم والافتراضات قابلة للتحقق من صحتها إمبيريقيا، ويتم بناء النظرية على أساس عناصر أساسية ومركبات، تشمل: المفاهيم والمتغيرات، تعريفات وافتراضات، ويوضح العلاقات بين الوقائع وانتظامها بطريقة دالة، ويبين أسباب وظروف تشكل هذا الواقع وتبدله، والعد الإمبيريقي المتضمن مكونات الواقع ومعطياته، بهدف تفسير هذا الواقع وفهمه، والتنبؤ بما يمكن أن يكون عليه مستقبلا".

يقصد **بالإمبيريقي Empirical**: التجريبي، أو كل ما يمكن تجربته ميدانيا.

1-1- المقاربة النظرية:

تعرف المقاربة في **معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية Approach/ Approche** بأنها: "الاتجاه الفكري أو المنحى، ويقصد بهذا المصطلح في مناهج البحث الاتجاه الفكري نحو موضوع أو موقف ما. وقد يكون هذا الاتجاه موضوعيا **Objective Approach** ويكون بعيدا عن المصلحة الشخصية أو التحيز، وقد يكون الاتجاه ذاتيا **Subjective Approach** ويكون متأثرا بالمصلحة الشخصية أو التحيز".

2- المقاربات النظرية السوسيولوجية حول الثقافة:

يمكن الحديث عن مجموعة من المقاربات النظرية، لدراسة الظواهر الثقافية في بعدها السوسيولوجي، ويمكن حصرها في تلك القديمة (ابن خلدون) والمعاصرة، وفيما يلي عرض لأهمها:

2-1- النظرية الدائرية لابن خلدون:

حاول **ابن خلدون** أن يتتبع المجتمع بالدراسة والتحليل، من نشأته حتى فساده. فتوصل إلى أن التاريخ البشري يسير وفق خطة معينة فحوادثه مرتبطة ببعضها البعض، وأن المجتمع البشري شأنه شأن الفرد الذي يمر بمراحل منذ ولادته وحتى وفاته، وكذلك يحدث للدول. وأن مسيرة المجتمع تغيرية دائرية، تبدأ وتنتهي في النقطة التي كانت قد بدأت منها. وأن هذه الظاهرة خارجة عن إرادة الفرد. ويرى **ابن خلدون** أن النظم والظواهر العمرانية تتغير في أثناء تطورها. لذلك، أولى الناحية التطورية للمجتمع عناية كبيرة وتعرف على العوامل التي تؤثر فيه. وقد توصل من خلال دراسته للمجتمع إلى **قانون الأطوار الثلاثة** ويتمثل فيما يلي:

1- **طور النشأة والتكوين**
2- **طور النضج والاكتمال**
3- **طور الهرم والشيخوخة**

وقد حدد عمر كل طور من هذه الأطوار الثلاثة بحوالي 40 **سنة** فيكون عمر الدولة 120 **سنة**، وبعد فناء مجتمع، يقوم مجتمع جديد على أنقاضه. ومن خلال هذه الأجيال الثلاثة، يمر المجتمع بخمس مراحل هي: **1- مرحلة البداوة، 2- مرحلة الملك، 3- مرحلة الترف والبذخ، 4- مرحلة الضعف والاستكانة، 5- مرحلة الفناء.**

كما درس خصائص كل مرحلة، فرأى أن العصبية تكون دعامة المجتمع القبلي، ودرس العوامل التي تكون عاملا في تطور المجتمع القبلي وهي: **1- العصبية، 2- الفضيلة، 3- الدعوة الدينية.** بينما وجد أن المجتمع المتحضر يصل إلى درجة النضج، من حيث التنظيم الاجتماعي والسياسي وانفراد السلطان بالمجد والسلطة، ثم الركون إلى الدعة. وتعرض إلى عوامل فساد المجتمع، وهي الانهيار الاقتصادي والضعف الديني، وتوصل إلى قانون (أن الهرم إذا نزل بدولة لا يرتفع)، وتعرض إلى عوامل تساعد على سرعة التقدم، وهي عوامل بيئية وكثافة السكان ثم عدالة الدولة. وأشار **ابن خلدون** أن الحضارة تحدث جانبا سلبيا، لأنها تدعو إلى الاسترخاء والخمول، وأكد أن الحضارة هي نهاية العمران البشري.

2-2- المقاربة البنيوية الوظيفية:

لم تكتف المقاربة البنيوية الوظيفية بدراسة الظواهر الثقافية من خلال بناها الداخلية، بل تنفتح عن الخارج بالبحث عن وظائفها، وربط البنية بالوظيفة، بحيث يرتبط السلوك الثقافي للفرد بالحاجات الأصلية والفرعية له. لذا، ترتبط هذه المقاربة بالإجابة عن سؤال "لماذا؟". تنبني المقاربة الوظيفية على النسق والوظيفة، من خلال تشبيه المجتمع بالكائن العضوي الحي. بمعنى، أن المجتمع يتكون من مجموعة من العناصر والبنيات والأنظمة، ويؤدي كل عنصر من هذه العناصر وظيفة ما داخل هذا الجهاز المجتمعي. وبهذا، يترابط كل عنصر في النسق بوظيفة ما، ومن ثم، فالمجتمع نظام متكامل ومترابط ومتماسك، يهدف إلى تحقيق التوازن، والحفاظ على المكتسبات المجتمعية.

وخير من يمثل هذه المقاربة، عالم الاجتماع الفرنسي **إميل دوركايم E. Durkheim**، والأمريكيان **تلكوت بارسونز T. Parsons** و**روبرت ميرتون R. Merton** وقد كان لهذه النظرية إشعاع كبير، في خمسينيات القرن العشرين.

هذا، ويرتبط النظام أو النسق الثقافي والمجتمعي حسب **مالينوفسكي B. Malinowski** بأداء احتياجات أصلية وفرعية. وهكذا، يرى الباحث أن ثقافة أي مجتمع تنشأ وتتطور في إطار إشباع الاحتياجات البيولوجية للأفراد، والتي حصرها في التغذية والإنجاب والراحة البدنية، والأمان والاسترخاء، والحركة والنمو. وتنشأ النظم الاجتماعية عادة لتحقيق تلك الرغبات، فنجد -مثلا- أن الزواج والأسرة يشبعان الحاجة الجنسية، ويؤديان وظيفة الإنجاب والتربية، كما أن المسكن والملبس يمكنان الجسم من الحصول على القدر اللازم من الراحة والتوافق البدني والنفسي. ولكي تستمر الثقافة في أداء وظيفتها من ناحية إشباع تلك الحاجات الإنسانية الضرورية، فمن الضروري إذن في رأي **مالينوفسكي** أن تتوافر اللوازم المادية كأدوات الصيد

والحرب (مثلا)، ولابد من وضع قواعد ونظم واجبة الاحترام والطاعة والتطبيق لإحكام الضبط الاجتماعي، علاوة على ضرورة وجود تقسيم للعمل على أساس الجنس والسن، وتحديد الأدوار والمكانات بين الأفراد، مما يؤدي إلى نشوء تنظيم اجتماعي متماسك له صفتا الاستقرار والاستمرار.

أما **دوركايم** فيرى أن المجتمع يتكون من مجموعة من الأفراد، تنسج بينهم علاقات متنوعة، ولكل فرد عقل خاص به. وكذلك للمجتمع عقل جمعي **Conscience collective** خاص به هو مصدر المعارف والأفكار السائدة. وبالتالي، فالعقل الجمعي هو مصدر المعارف التي يؤمن بها كل فرد من أفراد المجتمع. ويعني هذا، أن المثقف أو المبدع يصدر عن هذا العقل الجمعي، ويستمد منه أفكاره وتصوراته وتأملاته الاجتماعية. ومن ثم، فالعقل الجمعي هو مجموعة من العقول الفردية، التي تنصهر في بوتقة معرفية واحدة، وتشترك في الخصائص المجتمعية نفسها. ويعني هذا، أن الضمير الجمعي أو العقل الجمعي بمثابة لاشعور جماعي، وليس لاشعورا فرديا بالمفهوم **الفرويدي** (نسبة إلى المحلل النفسي **سيغموند فرويد S. Freud**).

3-2- المقاربة الإيديولوجية:

ظهرت المقاربة الإيديولوجية في دراسة الظواهر الثقافية والمعرفية، مع كتابات **كارل ماركس K. Marx**، التي تثبت أن المثقفين أو المفكرين، يعبرون عن أفكار الطبقة المهيمنة أو السائدة. وبالتالي، يمثلون البنية الفوقية وهي بنية إيديولوجية.

فقد قلب **كارل ماركس** إدعاء **هيغل Hegel** والفلسفة "**المثالية**" بشكل عام، والتي مفادها أن العالم الاجتماعي هو نتاج للأفكار، عندما قال إن العالم الاجتماعي في واقع الأمر هو المسؤول عن إنتاج الأفكار. ورأى **ماركس** أن المجتمع هو الذي ينتج الثقافة، وليست الثقافة هي المسؤولة عن إنتاج المجتمع. وعبر عن هذا الموقف بقوله:"وعي الناس لا يرسم حدود وجودهم، بل إن وجودهم الاجتماعي هو الذي يرسم حدود وعيهم".

لذلك، أصر **ماركس** على إتباع منهجية لا تبحث في الثقافة والعوامل "**المثالية**" على أنها المسؤولة عن إنتاج العوامل الاجتماعية، وإنما اتبع منهجية أخرى، تفسر كيفية توليد العوامل الاجتماعية -بما فيها الاقتصادية- للظواهر الاجتماعية. وقد طور ماركس في كتاباته الأولى، فكرة أن البناء الاقتصادي المنظم اجتماعيا لأي مجتمع يشكل ثقافته، ثم توسع في هذه الأفكار لاحقا، حينما بلغ مرحلة النضج في كتاباته.

4-2- المقاربة السوسيولوجية للثقافة نهاية القرن العشرين:

سنركز ضمن المقاربات السوسيولوجية للثقافة **نهاية القرن العشرين**، حول مقاربة **كارل مانهايم**، و**مدرسة فرانكفورت** وأصحاب **نظرية الغرس الثقافي** على النحو التالي:

1-4-2- كارل مانهايم:

سعى **كارل مانهايم K. Mannheim** إلى ربط أساليب معينة في الفكر بالحالات الاجتماعية المسؤولة عن إنتاجها، ورأى أن على أي مجموعة من الأفراد إن أرادت إدراك غايتها، أن تناضل مع بيئتها، البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية، التي تضم مجموعات أخرى من الأفراد. وما يحدد شكل هذا النضال، هو وجهة نظر المجموعة للعالم من حولها **Weltanschauung**، وذلك ما يميز تلك المجموعة عن غيرها. ولذلك فهو نشاط جماعي يهدف إلى بقاء المجموعة، وينتج منه وجهة نظر معينة إزاء العالم، تميز ثقافة تلك المجموعة عن غيرها. وبعبارة أخرى، إن أفعال مجموعة أو مجتمع وتصرفاته هي الأساس الذي يولد أفكار تلك المجموعة أو ذلك المجتمع.

ونشير ضمن هذا السياق، أن **مانهايم** يتفق مع **ماركس** على أن مثل هذه المجموعات ما هي إلا طبقات. ولذلك فإن إدراك الطبقات للعالم من حولها، ينتج من حالتها الاجتماعية. فكل طبقة في المجتمع **تدرك** العالم بطريقة مختلفة عن الأخرى نوعا ما. وهذا يعني أن لكل طبقة في المجتمع ثقافة **خاصة بها**، حيث تختص بميولات وتفضيلات معينة، كما تختص بمجموعة معينة من المعتقدات والقيم، ولها أساليبها الخاصة بها في فهم العالم من حولها.

2-4-2- مدرسة فرانكفورت والثقافة:

كان المفكرون المنتمون إلى **مدرسة فرانكفورت** من بين العلماء الأوائل، الذين انشغلوا على نحو جدي ومنهجي، بالشؤون الثقافية المستجدة في القرن العشرين. علما أنهم استقوا أفكارهم عن علماء الاجتماع الكلاسيكيين، الذين اهتموا بدراسة المسائل الثقافية، ومن أهمهم **ماركس وفيبر**، وغالبا كانوا يعيدون صياغة هذه الأفكار بأساليب مبتكرة جدا، بغية فهم طبيعة ثقافة القرن العشرين. وقد مثل موضوع **الثقافة الجماهيرية** من بين أكثر الموضوعات السوسيولوجية، التي خاضوا في دراستها، حيث كانت أفكارهم بخصوصه مثيرة للخلاف والجدل.

ويعتبر كل من **أدورنو T.W. Adorno** و**هوركهايمر M. Horkheimer** أحد أبرز رواد مدرسة فرانكفورت، حيث بينا في كتابهما "**الثقافة باعتبارها صناعة**" أن المنتجات الثقافية مثل الكتب واللوحات الفنية والعروض الموسيقية لم تكن خاضعة كليا في القرن التاسع عشر للنظام الرأسمالي بغية صناعة الأرباح، ولكن مع دخول القرن العشرين، أصبح مبدأ الربح يسيطر كليا على عملية الإنتاج الثقافي. فالآن، وعوضا عن قراءة المنتجات بعناية أو مشاهدتها أو الاستماع إليها، فإن المنتجات الثقافية قد وجدت لتستهلك، وأصبحت قيمتها الوحيدة هي القيمة المادية وما تساويه نقديا بدلا مما تساويه فنيا. فقد أصبحت الثقافة اليوم -حسبهما- عبارة عن عملية اقتصادية جامدة وواسعة النطاق، بدلا من أن تكون منفصلة نسبيا عن الاقتصاد.

وحول دراستهما للإنتاج السينمائي في **أربعينيات القرن العشرين**، ذهب كل من **أدورنو وهوركهايمر** إلى مماثلة إنتاج فيلم سينمائي، بتركيب أجزاء مختلفة للمركبة، فالممثلين وكتاب النصوص ومشغلي الكاميرات ومصممي الديكور والإضاءة..، يشاركون في إنتاج الفيلم، ولهم أدوارهم المحددة ضمن حدود تقسيم العمل

في الإنتاج السينمائي. حتى أن دور الملحن، قد قلص ليصبح تقنيا في المجال الموسيقي ليس إلا. فلم يرغب المسؤولون عن الاستوديوهات في إنتاج موسيقى إبداعية، لأنها لا تتوافق مع المعايير المحددة للأجزاء الأخرى، التي تدخل في صناعة فيلم ما.

2-4-3- نظرية الغرس الثقافي Cultivation Theory:

يهتم أصحاب هذه النظرية، بدراسة الآثار طويلة الأمد للتلفزيون، باعتباره أكثر وسائل الإعلام الجماهيرية تأثيرا في المتلقين، وبخاصة الجمهور الأمريكي، وهي نظرية اجتماعية تطورت على يد **جورج جربنر G. Gerbner** و**لاري غروس** من **جامعة بنسلفانيا**، استمدت من عدد من المشاريع البحثية واسعة النطاق، كجزء من مشروع بحثي شامل بعنوان: **"المؤشرات الثقافية"**، وكان الغرض من هذا المشروع، معرفة وتتبع آثار التلفزيون المنغرسة في المتلقين، حيث شكل موضوع العنف المتلفز بؤرة اهتمام للباحثين، نظرا لما له من تأثيرات على مواقف وسلوكيات الجمهور/ أو المتلقي الأمريكي، إذ تشير نظرية الغرس الثقافي إلى أن التعرض للتلفزيون، يزرع بمهارة ومع مرور الوقت مفاهيم المتلقين/ أو المشاهدين للواقع. وبهذا المعنى، فإن الإفراط في مشاهدة التلفزيون له تأثير قوي على الثقافة الأم أو الأصلية للمتلقين.

ولذلك يرى كل من **جربنر** و**غروس** أن التلفزيون هو وسيلة للتنشئة الاجتماعية، يوحد الكثير من أنماط السلوك والأدوار لدى معظم الأفراد، فتكون مهمته بذلك التثقيف. في حين يرى العالم البريطاني **جورج فرنير** أن مثل هذه النظرية قد تصدق في حالة تلقي المعلومة من جهاز واحد (تلفزيون واحد)، غير أن تعدد الأجهزة وتعدد رسائلها وتنوعها، تتيح فرصا أوسع للاختيار والمقارنة مع الوضع في الاعتبار العوامل المساعدة على إحداث التأثير.

ومن مجالات التأثير التلفزيوني نذكر ما يلي:

- **تأثيره في الوقت:** يعيد الكثير من الأفراد تنظيم أوقاتهم بحسب البرامج التلفزيونية التي يتابعونها، كتغيير مواعيد تناول الطعام والنوم..إلخ.
- **تأثيره في النشاط التربوي:** بسبب البرامج التلفزيونية أصبح الكثير من الأطفال لا يرغبون الخروج من منازلهم للعب أو المطالعة أو ممارسة هواياتهم المفضلة وحتى الانصراف عن أصدقائهم.
- **تأثيره في التحصيل العلمي:** إن الإفراط في مشاهدة البرامج التفزيونية، أدى إلى تدهور النتائج الدراسية للعديد من الطلاب، حيث تقلصت أوقات مراجعة الدرس وأداء واجباتهم المدرسية.

هذا، ويؤكد أصحاب **نظرية الغرس الثقافي** أن وسائل الإعلام الجماهيرية، تقوم بغرس عالم وهمي في ذهن المتلقي، والذي يتقبل هذه الصورة على أنها تعبير حقيقي للواقع، لكنه يكون غير واع بعملية صنع هذا الواقع، بل إن وعيه لا يتعدى الشعور بالتسلية، وذلك بقضاء ساعات طويلة في مشاهدة برامج التلفزيون.

خلاصة:

شكلت الثقافة ولازالت واحدا من أكثر المفاهيم صعوبة من حيث تحديدها، وأكثر الموضوعات تعقيدا من حيث كونها موضوعا مشتركا بين العديد من العلوم الاجتماعية والإنسانية، ولعل أنواعها تخبرنا بمدى تعقدها وتشعبها، وأن استخداماتها آخذة في التوسع، بتعدد تلك الأنواع، وأن إرهاصات الرعيل الأول من علماء الاجتماع والمعاصرين كذلك، تبين لنا بأن الثقافة يمكن تناولها من زوايا ومنظورات مختلفة تفيد جميعها في فهم الثقافة، وإن كانت ضمن التخصص العلمي نفسه.